القبيلة والسياسة في الدولة العربية الإسلامية
عصر صدر الإسلام

أ.م.د. بديع محمد ابراهيم

The Tribe and Politics in Islamic Arabic State in the Beginning of Islam

PhD. Asst. Badee Mohammed Ibrahim

In the pre-Islamic era, the tribe represented the basic pillar in the political life especially when the tribe, at that time, was like a state in terms of its administrating all the social, economic and political activities. Tribal racism represented one of the prominent signals of belonging to the tribe and that the tribe position transcends and grows according to the number of values and considerations (the number of people, the power and wisdom of the tribe's men and the economic and religious privileges) the tribe has.

The political effect of the tribe has not stopped in the Arabic societies in the Pre-Islamic era or post0Islamic era. Frequently, that effect was the decisive factor in the military and political situations through the ability of the tribe, either alone or with its coalition with other tribes, to change the balance of the military and political powers where it masters the situation.

In this research, the researcher sheds light on the following:

1. The tribe and its political position in the Pre-Islamic era.
2. The tribe and politics in the Prophesy era.
3. The tribe and politics in the Caliphate (succession) era.

La tribu et la politique dans l'Etat arabo-islamique
L'ère époque de l'Islam

Prof. ajoint. D. Badi Mohamed Ibraham...

La tribu a été considérée et dès l'époque pré-islamique l'axe essentiel dans la vie politique, quand elle était à cette époque comme l'état en termes de gestion de tous les événements politiques, économiques, sociaux et autres, son rôle effectif notamment celui de la politique n'a pas arêté dans les sociétés arabes, également dans l'époque avant l'Islam ou après, cet impact qui était souvent le tranchant dans des positions politiques et militaires grâce à la capacité de cette tribu ou celle là, soit seule ou en ligue avec d'autres tribus en condition qu'elle joue le rôle du changement dans l'équilibre des forces politiques et militaires pour qu'elle ait sa derrnière décision, et il ya à ce propos beaucoup d'États ont commencé ou fini à cause des effets tribaux qui avaient une présence dans leur action politique .

Nous essayons et grâce à cette recherche de mettre en évidence la tribu et son impact sur la politique de l'Etat arabo-islamique, notamment à l'ère époque de l'Islam et nous avons décidé à le diviser en axes comme-ci :

1. **La tribu** et son rôle politique significant à l'epoque pré-islamique.
2. **La tribu** et la politique à l'époque de la prophétie.
3. **La tribu** et la politique dans le noble califat.

بسم الله الرحمن الرحيم

مستخلص البحث

مثلت القبيلة ومنذ عصر ما قبل الإسلام المرتكز الأساس في الحياة السياسية لاسيما وان القبيلة آنذاك كانت اشبه بالدولة من حيث ادارتها لجميع الفعاليات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغير ذلك ، لم يتوقف اثر القبيلة لاسيما السياسي في المجتمعات العربية سواء في عصر ما قبل الإسلام ام بعده ، ذلك الأثر الذي كان في كثير من الأحيان يكون هو الحاسم في مواقف سياسية وحربية من خلال قدرة هذه القبيلة او تلك سواء بمفردها ام بتحالفاتها مع قبائل اخرى على ان تغير من ميزان القوى السياسية والعسكرية فيكون الحسم لها ، ولطالما قامت دول وانتهت بسبب المؤثرات القبيلة التي كان لها حضورها في العمل السياسي لتلك الدول .

اننا ومن خلال هذا البحث نحاول تسليط الضوء على القبيلة وما كان لها من اثر في السياسة في الدولة العربية الإسلامية ، في عصر صدر الإسلام وارتأينا تقسيمه الى محاور هي :

اولاً: القبيلة وثقلها السياسي في عصر ما قبل الإسلام

ثانياً : القبيلة والسياسة في عصر النبوة

ثالثاً : القبيلة والسياسة في عصر الخلافة الراشدة

المقدمة

تمثل القبيلة اول صورالمجتمع، (وهي الجماعة التي تنتمي الى نسب واحد ويرجع ذلك النسب الى جد أعلى او الى جدة وهو في الأقل... وهي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية ، فليس فوقها مجتمع عندهم وهي في معنى (شعب) عندنا وفي مصطلحنا الحديث)[١] وفي القبيلة تقوم العلاقات الإجتماعية على اساس القرابة ، ويحكمها رئيس القبيلة، وقد مثلت القبيلة ومنذ عصر ما قبل الإسلام المرتكز الأساس في الحياة السياسية لاسيما وان القبيلة آنذاك كانت اشبه بالدولة من حيث ادارتها لجميع الفعاليات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغير ذلك ، وقد ظلت القبيلة هي اساس التعايش والأساس في علاقات الأفراد سواء داخل القبيلة الواحدة ام مع القبائل الأخرى ، وقد مثلت العصبية القبلية واحداً من ابرز شواهد الإنتماء الى القبيلة والتمسك بها ، ولا يمكن التقليل من شأن القبائل وأثرها في التعايش والتعارف وبناء العلاقات فيما بينها وقد أكد القرآن الكريم على هذا الأمر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢]

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الناس وجعلهم شعوباً وقبائل للتعارف والتعايش، وبناءً على مصالح الناس فقد أخذ هذا التعارف والتعايش سمات ايجابية وسلبية، وفي الوقت نفسه كانت مكانة القبيلة تسمو وتكبر بحسب ما يتوافر لها من اعتبارات عدة، فضلاً عن النسب، (الذي هو سبب التعارف وسلَّم الى التواصل ، به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة)[٣] فحجم القبيلة وقوة رجالها وحكمتهم ثم ما

---

(١) علي،جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ (ساعدت جامعة بغداد على نشره -١٩٩٣) ج١/٥١٠-٥١١.

(٢) سورة الحجرات:، آية :١٣

(٣) ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) ،العقد الفريد ، (دار احياء التراث العربي- بيروت-لبنان-د.ت) ج٣/ص٢٧٤.

يكون لها من امتيازات دينية واقتصادية يشكل عاملاً مهماً في علو الشأن على اقرانها، وخير مثال على ذلك قبيلة قريش التي توافرت لها هذه الإعتبارات فجعلها تتفوق على القبائل الأخرى وتحضى بمكانة لم تحض بها قبيلة أخرى.

لم يتوقف اثر القبيلة لاسيما السياسي في المجتمعات العربية سواء في عصر ما قبل الإسلام ام بعده، ذلك الأثر الذي كان في كثير من الأحيان يكون هو الحاسم في مواقف سياسية وحربية من خلال قدرة هذه القبيلة او تلك سواء بمفردها ام بتحالفاتها مع قبائل اخرى على ان تغير من ميزان القوى السياسية والعسكرية فيكون الحسم لها، ولطالما قامت دول وانتهت بسبب المؤثرات القبيلة التي كان لها حضورها في العمل السياسي لتلك الدول.

اننا ومن خلال هذا البحث نحاول تسليط الضوء على القبيلة وما كان لها من اثر في السياسة في الدولة العربية الإسلامية، في عصر صدر الإسلام وارتأينا تقسيمه الى ثلاثة محاور هي:

اولاً: القبيلة وثقلها السياسي في عصر ما قبل الإسلام

ثانياً : القبيلة والسياسة في عصر النبوة

ثالثاً : القبيلة والسياسة في عصرالخلافة الراشدة

على انه يجب التنويه الى اننا لا نستطيع ان نلم في هذا البحث بكل المؤثرات السياسية للقبيلة ولكننا سنأخذ نماذج منها وفق مجريات الأحداث التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية خلال هذه المدة .

اولاً: القبيلة وثقلها السياسي في عصر ما قبل الإسلام :

لقد مثلت القبيلة عند العرب قبل الإسلام الأساس الذي يقوم عليه النظامين السياسي والإجتماعي في شبه جزيرة العرب، اذ كان العرب ينقسمون الى قبائل عدة تمثل كلاً منها وحدة اجتماعية مستقلة عن الأخرى، وكان لكل قبيلة شيخ يسمى رئيس القبيلة يتم اختياره لتوافر شروط الرياسة به[١].

(١) الملاح، هاشم يحيى: حكومة الرسول –صلى الله عليه وسلم – دراسة تاريخية دستورية مقارنة، ط١(دار الكتب العلمية–لبنان – بيروت ٢٠٠٧) ص٧.

لقد خضعت بلاد العرب قبل الإسلام لسيطرة امبراطوريتين كبيرتين هما الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين وكان لكل منها قبائل عربية تخضع لسيطرتها وتدين لها بالولاء، ولطالما استخدمت تلك الإمبراطوريات هذه القبائل لتحقيق اغراض سياسية وحربية من خلال زجها في الصراع السياسي والحربي الذي كان قائماً بين الإمبراطوريتين، فالغساسنة في بلاد الشام كانوا اكبر حليف للروم البيزنطيين، وبالمقابل كان المناذرة اكبر حليف للفرس الساسانيين، ولمن يتتبع تاريخ الغساسنة والمناذرة يجد انهما كانا يمثلان انموذجاً واضحاً لدولة القبيلة وسلطة القبيلة، وكانتا في صراع سياسي وحربي مستمرلم يكن يمثل صورة الصراع بين الدول التي تسعى لإثبات وجودها وبناء شخصيتها المستقلة وفرض هيبتها على القوى المجاورة بقدر ما كان يمثل صراعاً بالنيابة عن قوى اكبر كانت تفرض حضورها آنذاك، وكانت تسعى لإيجاد البديل الذي يحارب عنها تجاه القوى المناهضة لها، بل وان يجعل منها جدار صد لحدود امبراطوريتها من الهجمات الخارجية[١] وقد امتلكت هذه القبائل من القوة والنفوذ ما استطاعت به ولمرات عدة ان تشعر الإمبراطوريات المرتبطة بها – الروم والفرس – انها قادرة على ان تقف بالضد من اطماعها وان تدير دفة الأحداث بالشكل الذي يمثل تهديداً لمصالحها[٢]، الأمر الذي يستشف منه ان هذه القبائل ان استطاعت ان توحد صفوفها وتنبذ خلافاتها العصبية، ولو انها امتلكت هدفاً واضحاً يتمثل في الخلاص من سيطرة هذه القوى المتسلطة عليها وصدقت في مقاصدها لكانت قد غيرت من نمط الحياة السياسية التي عاشتها، ولعل ابرز شاهد على ما نقصده هو ما جرى مع قبيلة كندة التي استطاعت ان تؤسس لإطار دولة في شبه جزيرة العرب ، ثم ما كان من صورة اوضح ما قام به بنو شيبان يقودهم هانيء بن مسعود الشيباني في عدم الإنصياع والخنوع لرغبات كسرى – ملك الفرس – حين سعى لإذلال ملك الحيرة النعمان بن المنذر ثم مطالبته لبني شيبان بتسليمه الودائع والنساء التي تركها النعمان عندهم ، فما كان من بني شيبان الا ان يهبوا للدفاع عن الأرض والمال

(١) علي، المفصل ،ج٣/ ص٢٠٨، ص ٢٢٠-٢٢٣.

(٢) علي ، المفصل، ج٢/٢٤٠.

والعرض وتناخت معها قبائل عدة فاستطاعوا كسر شوكة الفرس في معركة ذي قار[١].

لم تنفك القبيلة في عصر ما قبل الإسلام ان تكون محركاً للإحداث السياسية، وليس من شك ان هذا الحراك يختلف من قبيلة لأخرى بحسب ما تتمتع به من مزايا حربية ودينية واقتصادية، ولقد كانت قبيلة قريش من ابرز القبائل التي كانت مؤثرة في الأحداث السياسية لجزيرة العرب وهذا ناتج عما كانت تحضى به من مزايا، فعدد افرادها كان كبيراً مما هيأ قدرات حربية قتالية لها تستطيع ان تدفع به عدوان القبائل اخرى، وكذلك ما كان لها من مكانة دينية بوجود بيت الله الحرام فيها الذي تحج اليه العرب من كل مكان ، وقد منحها هذا الأمر فضلاً عظيماً على غيرها من القبائل، اما الجانب الإقتصادي فكانت تجارة قريش وقوافلها من اكبر قوافل العرب التي تسير الى الشام واليمن وقد اثر ذلك في ان تعقد تحالفات مع القبائل الأخرى لضمان سلامة تجارتها وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم[٢]، وكان هذا سلوك قبائل جزيرة العرب اذ حملت الضرورات هذه القبائل على تكوين الأحلاف للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول.[٣]

اما عن الأوضاع السياسية في مكة وحكم قريش فيها فقد كانت تحكمها من خلال مجلس الملأ الذي يمثل اعلى سلطة ويتكون من روؤساء الأسر والعشائر ولم يكن له رئيس، لأن هؤلاء لم يكونوا يرغبون بالخضوع لرئيس اعلى معترف له بحق الرئاسة، وواجبات هذا المجلس تكاد تكون نفسها التي يقوم بها شيوخ القبائل[٤]، على ان هذا لايعني ان قريش كقبيلة واحدة كانت متوافقة فيما بينها ،بل كان التنافس قائم

---

(١) الطبري ،محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢(دار المعارف – مصر –د.ت) ج١٩٣/٢وما بعدها؛ علي، عبدالباسط عبدالرزاق حسين، قبيلة كنده ودورها في التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية التربية – ابن رشد ٢٠٠٣، ص٢٥-٢٦.

(٢) سورة قريش

(٣) علي ، المفصل ، ج٥١٤/١.

(٤) الملاح ، حكومة الرسول–صلى الله عليه وسلم– ص١٠.

بين مكوناتها من خلال سعيها لتقاسم وظائف السيادة في مكة – الحجابة والسقاية والرفادة وحمل اللواء – او من خلال التنافس بين ابناء قصي بن كلاب ، بنو عبد مناف ومن تحالف معهم الذين كونوا حلف المطيبين او بني عبد الدار الذين تعاهدوا هم وحلفائهم عند الكعبة فاقاموا حلفاً مؤكداً على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا الأحلاف[١]، ثم كان التنافس بين ابناء العم – بنو عبد مناف – اذ دب الخلاف بين بنو هاشم وبنو امية[٢] فكان من بين نتائج الخلاف هذا اعلان بني هاشم ومن وقف معهم حلف الفضول[٣].

اما في يثرب فقد كانت قبائل الأوس والخزرج تسيطر عليها وكان العداء القائم بينها عداءً سياسياً يتمثل في محاولة كل منهما ان تكون له الزعامة السياسية والسيادة فيها وبما انه لم يكن ليقبل احدهما الخضوع لسلطان الآخر فقد وجدوا خلاصهم في رجل يتولى ردم الخلافات والقضاء على الفوضى فيها ولم تكن له يد في المنافسات التي كانت تشهدها الأطراف في يثرب ، فكانت نهاية ذلك الصراع عندما دخل النبي ﷺ اليها فاصبح هؤلاء اخوة في الدين وانصهروا في بوتقة الإسلام وابلوا فيه بلاءً حسناً[٤].

القبيلة والسياسة في عصر النبوة :

لم تفقد القبيلة مكانتها بعد مجيء الإسلام، ولقد كان من اوائل الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم فيها دعوة العشير– القبيلة– اذ ورد عند البخاري انه: لما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٥] جعل النبي ﷺ ينادي يا بني

(١) ابن هشام، ابو محمد عبد الملك المعافري ، (ت٢١٨هـ) ، السيرة النبوية ،تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (منشورات سلسلة تراث الإسلام _لا.مكان– د.ت) ، ق١/ج١/١٢٤–١٣٢.

(٢) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي : النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني وهاشم ، تحقيق حسين مؤنس (دار المعارف– القاهرة– د.ت)، ص٣٧–٤٢.

(٣) ابن هشام ،السيرة النبوية،ج١/١٣٣–١٣٤

(٤) الملاح ، حكومة الرسول–صلى الله عليه وسلم– ص١٢.

(٥) سورة الشعراء، آية ٢١٤

فهر، يا بني عدي ،ببطون قريش) وفي رواية اخرى جعل النبي ﷺ يدعوهم قبائل قبائل)[١].

لقد استحضرت القبيلة فعلها في عصر النبوة منذ ايام الدعوة وما بعدها وقد اتخذت اشكالاً عدة في هذا الحضور منها ما كان ضمن اطار الدعوة والدولة ومنها في اطار المصالح السياسية – الرياسة والزعامة– وقد كان هناك صراع بين التيار الإسلامي والتيار القبلي في زمن النبي ﷺ وبعد وفاته[٢] على ان هذا التيار القبلي وان سعى لمقاومة التيار الإسلامي فانه في بعض الأحيان كان يصب في مصلحة الدعوة الإسلامية وتقويتها، فالنبي ﷺ حين جهر بدعوته في مكة سعت قريش الى القضاء عليه ولكنها اصطدمت بموقف بني عبد المطلب ممن لم يسلموا والذين وقفوا بوجهها دفاعاً عن النبي ﷺ لاسيما عمه ابو طالب الذي يمثل المتكأ القبلي ، ويدفعهم الى ذلك العصبية القبلية[٣]، وكذلك فعل بعض زعماء قريش حين اسلم بعض اقاربهم مثلما فعل هشام بن الوليد حين اسلم اخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة[٤]، وحين فرضت قريش على بنو عبد المطلب المقاطعة في شعب ابي طالب لم تستطع ان تستمر بها الى حين القضاء على النبي ﷺ ومن معه في الشعب، اذ ان من اخذته حمية العصبية القبلية من بعض قبائل قريش قد ابطلت مشروع المحاصرة[٥] ولم ينفك زعماء قريش

(١) الإمام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦هـ) ، صحيح البخاري،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،(مطبعة فياض – المنصورة– د.ت) رقم الحديث ٣٥٢٥و٣٥٢٦ وينظر الحديث ٢٧٥٢. وينظر الإمام مسلم ، ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري(ت٢٦١هـ) ، صحيح مسلم ، (دار الجيل –بيروت – د.ت) الأحاديث ٥٢٥–٥٣٠ .

(٢) الدوري، عبد العزيز ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٢(مركز دراسات الوحدة العربية– لبنان–بيروت –٢٠٠٧)ص٤٨.

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق١/ج١/٢٦٦–٢٦٩ ،٣٢١

(٤) ابن هشام ،السيرة النبوية، ق١/ج١/٣٢١

(٥) ابن هشام،السيرة النبوية، ق١/ج١/ص٣٧٤–٣٧٧. المقريزي، النزاع والتخاصم، ص٦٣–٦٥.

في محاولاتهم تلك حتى تهيأت اسباب هجرته ﷺ من مكة الى يثرب ليقيم هناك دولة المدينة.

ومهما يكن من امر القبيلة وما يمكن ان تقدمه في ظل الإسلام الاّ انه يبقى شأن العقيدة –الدين– اعلى واسمى منها، وان عطاء الرجل وبلاؤه في الإسلام يعلو على مكانة الرجل وبلاؤه في القبيلة ، وقيمة الإنسان لا تعتمد على الثروة والإنتماء القبلي كما كان يعتقد المشركون وانما تعتمد على سلوكه الشخصي ، وان افضل الناس افضلهم عملاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[١] وحين انشغل النبيﷺ بدعوة بعض زعماء مكة الى الإسلام ولم يلتفت الى ابن ام مكتوم رضي الله عنه حين اتاه ليسأله، لحرصه ﷺ على دعوة هؤلاء لمكانتهم من قومهم ولعل اسلامهم يقود الى اسلام آخرين من قومهم ،وقد انزل الله تعالى سورة من القرآن[٢] تتضمن عتاباً للنبي ﷺ لإنشغاله بزعماء مكة عن ابن ام مكتوم[٣] .

ان العلاقات القبيلية التي كانت قائمة بين قبائل مكة قد افادت في عدم تعرض بعض المسلمين الأوائل من ابناء القبائل القرشية للأذى من خصومهم –مشركي مكة– لأن المساس بهم كان يمثل مساساً للقبيلة كلها[٤] وفي الوقت نفسه فان هذه العلاقات لم تكن تسمح بانتصار الدعوة الإسلامية وانتشارها ،لأن ذلك يعني بنظرهم ارتفاع بني هاشم الى مركز السيادة على جميع القبائل[٥] فضلاً عن الإستعلاء القبلي والإنتصار لدينها ومكانتها جعل بعض قبائل مكة تثب على من اسلم منها من المستضعفين فعمدت الى حبسهم وتعذيبهم بالضرب والجوع والعطش فمنهم من يفتن من شدة البلاء

(١) سورة الحجرات : آية ١٣

(٢) سورة عبس آية:١–١١

(٣) الملاح، حكومة الرسول – صلى الله عليه وسلم– ص ٣٢

(٤) الجابري، محمد عابد، العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط١(مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت –١٩٩٠) ص٢٨.

(٥) الجابري، العقل السياسي العربي، ص٨٨.

الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم[١]، ولقد سعى زعماء قريش الى التخلص من النبي ﷺ بمحاولة اغتياله وقد اورد ابن هشام[٢] ما قاله ابليس لهم حين اجتمعوا بدار الندوة ليقطعوا امرهم فيما يفعلوا به وقد اتاهم بصورة شيخ نجدي ، ثم ما كان من راي ابو جهل بان ياخذوا من كل قبيلة شاباً نشيطاً ويعطى كل واحد منهم سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ويتفرق دمه بين القبائل وحينها لا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا بالعَقل. فلما كانت الليلة التي ارادوا تنفيذ خطتهم به اتاه الوحي من ربه تعالى عز وجل ليخبره بما عزم عليه القوم ،واخبره ان الله تعالى اذن له بالهجرة وقال له: (لاتبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه)[٣]، وفشلت خطة قريش التي ارادوا من خلالها انهاء امر هذا الدين الذي هدد مكانتها السياسية وادركت فيما بعد ان وصول النبي ﷺ الى المدينة انما سياتي على انهاء المكانة السياسية والزعامة الدينية لكبار قريش ولهذا لم ينفكوا من محاولة القضاء عليه في حروب متتالية لم تكن نتائجها الاّ زيادة اعداد المسلمين وقوتهم وتراجع مكانة زعماء قريش ونفوذهم السياسي حتى كان فتح مكة عام ٨هـ الحد الفاصل في انهاء آمال من بقي منهم .

ولم تفقد القبيلة مكانتها بعد قيام دولة المدينة–التي اقامها النبي ﷺ ولكنها بلا شك اتخذت اطاراً آخر غير الذي كانت عليه قبل الإسلام، اذ ان مفهوم الأمة الذي اقره النبي ﷺ يتجاوز القبيلة ولكنه لا يلغيها ولا تعارض بين ان يكون المسلمون هم عماد هذه الأمة وهم في الوقت نفسه مرتبطين باعتزاز بقبائلهم بوصفها اطاراً اجتماعياً، وندرك أن الإنتماء لهذه الأمة قد تحول من كونه افراداً يدخلون الإسلام في بداية الدعوة الى دخول على مستوى القبيلة بأكملها اي ان القبيلة كانت تعلن ولائها السياسي بدخولها الإسلام[٤]، ومما ورد في التأكيد على النسب ما قاله امير المؤمنين

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق١/ج١/٣١٧.

(٢) ابن هشام ،السيرة النبوية،ق١/ج١/٤٨٠–٤٨٢.

(٣) ابن هشام ،السيرة النبوية، ق١/ج١/٤٨٢

(٤) الجابري، العقل السياسي العربي ، ص ٩٦– ص٩٧.

عمر بن الخطاب ﷺ (تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا وكذا ...)[١]، فالإسلام جعل رابطة العقيدة هي الأساس في ارتباط الناس – تآلفهم– ولم يلغ الأواصر الأخرى للترابط القبلي ان انضوت تحت رابطة العقيدة مثل ذلك صلة الرحم وغيرها من الروابط والصلات التي اكد الإسلام على الأخذ بها[٢].

لقد عمد الإسلام الى مكافحة الإتجاهات القبلية وابرز ما فيها العصبية القبلية واحلال رابطة الدين محل رابطة النسب، وكذلك استبدال فكرة الغزو لدى القبيلة بالجهاد في سبيل الله، وتجاوز حدود القبيلة من خلال تكوين الأمة التي هي فوق القبيلة، ومن خلال محاولته ﷺ اذابتها في الأمة[٣]. وقد ادخل النبي ﷺ فكرة الدولة والقانون الى العرب ليقابل فكرة القبيلة والعرف[٤] وقد ذم التعصب الذي يقوم على مناصرة الفرد للفرد بالباطل ومن ذلك ما حدث من شجار حين كسع رجل من المهاجرين رجلاً انصارياً – أي ضربه على مؤخرته – فغضب الأنصاري وقال يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فخرج النبي ﷺ فقال: (ما بال دعوى اهل الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم؟ فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري فقال: دعوها فانها خبيثة)[٥].

لقد كان للقبيلة حضورها في المدينة وتاثيرها في نشر دعوة الإسلام فيها، فالدعوة والإستعداد للهجرة للمدينة بدأ بالإتصال برجال من الأوس والخزرج ،هذين الحيين الذين امضيا عقوداً طويلة من العداء في يثرب، فكانت طلائع الأوس

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٣/ص٢٧٤.

(٢) العمري ، اكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، (مكتبة العلوم والحكم ، لا.مكان .د.ت) ج٢٤٩/١

(٣) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، ص٤٥-٤٦

(٤) الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام،ص٤٦.

(٥) البخاري،صحيح البخاري، رقم الحديث(٣٥١٨)) ،.

والخزرج التي التقت النبي ﷺ في موسم الحج سواءً في العقبة الأولى ام الثانية[١] هي بداية انهاء الصراع بينهما، فانصهروا بعد الهجرة في بوتقة الإسلام وحلت رابطة الدين بدل رابطة الدم، ومما يدخل في هذا الأمر ما ذكر من حديث اثناء عرض شروط بيعة العقبة الثانية وانهم يبايعوه على منعه مما يمنعون منه انفسهم وازواجهم وابنائهم، ثم ما قاله اسعد بن زرارة لأهل يثرب ممن حضر البيعة فيما يترتب على قبولهم لهذا الدين الجديد وهجرته ﷺ اليهم بان في (اخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ،وقتل خياركم ، وان تعضكم السيوف...)[٢] فكان قبولهم بما ورد في هذه البيعة انما فيه دلالة على انهم لن يجعلوا لصلة النسب – القبيلة – علواً على صلة الدين – العقيدة –.

لقد اخذت الدعوة في المدينة طريقها لإقامة الدولة، ففي الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ ينظم شؤون المدينة ومن يعيش فيها كانت هناك ممارسة لسياسة خارجية تجاه زعامات مكة، واول ممارسات هذه السياسة هي الحرب النفسية وضرب المصالح الإقتصادية لها، التي قادت الى حروب بين الطرفين انتهت بهزيمة تلك الزعامات واستسلامها امام هذه الدعوة ثم دخول من دخل فيما بعد في الإسلام[٣] .

ومن اجراءاته ﷺ في المدينة تحقيق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وجعلها عامة لا فردية وتستند الى اساس ديني لا الى الدم كما هو الحال عند القبائل[٤]، واصداره وثيقة المدينة التي تعد اول دستور اسلامي نظم حياة المسلمين ومن يعيش معهم في المدينة وازاح بها ما كان من امر الجاهلية والنزعات القبلية ، اذ اكد بموجب تلك الوثيقة على ان المسلمين (امة واحدة من دون الناس)[٥]، وقد استحضر

---

(١) المباركفوري، صفي الرحمن: سيرة رسول الله ﷺ الرحيق المختوم، ط١(المطبعة العالمية– لامكان–٢٠٠١) ص١٢١– ١٢٤.

(٢) المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص١٢٦ .

(٣) الجابري ، العقل السياسي العربي ، ص٩٢.

(٤) الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، ص ٤٩ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية، ق١ /ج١/ ٥٠١ .

فيها اسم القبيلة ولكن في اطار العقيدة الجديدة اذ ورد فيها ان المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ... واشار الى كل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[١]، ومع انه ﷺ ذكر الأفخاذ والبطون كوحدات اجتماعية في الأمة تقوم بدفع الفدية والدية على النحو الذي كان معروفاً، الاّ انه لم يبق لها كيان، والمرجع الأعلى هو الرسول ﷺ لهذه الأمة، والأمة تضم افراداً من قبائل مختلفة مما ينافي الأسس القبلية، فقد تضمنت الوثيقة انه: ((وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد ﷺ))[٢].

لقد اعتلت المكانة السياسية لكثير من قبائل العرب بعد ان دخلت في الإسلام وابلى فيه رجالها بلاءً حسناً فضلاً عن قريش التي كان منها المهاجرون السابقون ، وقد وردت احاديث عدة عن رسول الله ﷺ يذكر فيها مناقب قبائل عدة[٣]، ومنها احاديث تبين مناقب قريش ومكانتها وتدخل في اطار حكم الأمة ، ففي حديث اورده البخاري انه: (لما بلغ معاوية ان عبدالله بن عمرو بن العاص يحدث انه سيكون ملك من قحطان غضب معاوية فقام فاثنى على الله بما هو اهله ثم قال: اما بعد ، فانه بلغني ان رجالاً منكم يتحدثون احاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ فاولئك جهالكم فاياكم والأماني التي تضل اهلها فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهم احد الاّ كبَّه الله على وجهه ما اقاموا الدين)[٤]، وعن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان)[٥].

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية، ق١ /ج١/ ٥٠١-٥٠٢ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق١/ج١/٥٠٢.

(٣) البخاري، صحيح البخاري ، ينظرالإحاديث ٣٤٨٩-٣٥٠٤

(٤) صحيح البخاري ، الحديث (٣٥٠٠)

(٥) البخاري ، صحيح البخاري ، الحديث (٣٥٠١)

لقد كان المخيال السياسي حاضراً لدى بعض زعامات القبائل التي كانت تقف بالضد من الإسلام ، والتي كانت ترى في الإسلام انهاءً لنفوذها السياسي الذي ارادت ان تؤطره بالإطار الديني، فعبد الله بن ابي بن سلول – رأس المنافقين – في المدينة وما كان يحمله من حقد على الإسلام انما يعود الى ان قومه كادوا ان يملكوه عليهم وذلك قبل الهجرة بقليل ، فلما كانت الهجرة ودخل النبي ﷺ الى المدينة فسد عليه هذا الأمر ولم يلتفت اليه احد فكانت كراهيته للنبي ﷺ وللإسلام لما كان من سبب في فقدانه زعامة سياسية قبلية كاد ان يحصل عليها[١]، كما كان اسلام بعض القبائل في عام الوفود اسلاماً سياسياً وليس عقائدياً وهو من قبيل الولاء الذي كانت قبائل العرب تمنحه لزعيم القبيلة التي تنتصر في غزواتها ولهذا كانت مثل هذه القبائل تنظر الى هذا الولاء بانه شخصي وينتهي بموت من اقرت له بهذا الولاء ، وهذا ما سيجري بعد وفاة النبي ﷺ[٢]، وكان زعماء قريش في مكة ينفسون على بني عبد مناف ان يكون فيهم شرف النبوة الى جانب ما كانوا يحضون به في مكة وقد عبر عن ذلك ابو جهل – وهو من مخزوم – بقوله: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :اطعموا فاطعمنا وحملوا فحملنا واعطوا فاعطينا حتى اذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي ياتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدقه)[٣] وكذلك قوله: (اذا اجتمعت في بني عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون لهم النبوة فاي شيء يبقى لنا)[٤]، كما انهم كانوا يسعون لحفظ مكانتهم السياسية والوقوف بوجه القوة الجديدة المتمثلة في المسلمين في المدينة، ولهذا كان تحالف القبائل من قريش وغطفان وبنو سليم ومن تحالف معهم من اليهود يوم الأحزاب – غزوة الخندق– انما يمثل تحالفاً قبلياً سياسياً بين تلك القوى يؤطر مصالح دينية واقتصادية، وحين فشل هؤلاء في هذه الغزوة ادركوا انهم قد اصبحوا امام دولة

(١) المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد، الكامل، (القاهرة –١٩٣٧) ج٢/١٣١.

(٢) الجابري، العقل السياسي العربي ، ص١٢٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١/ج١/٣١٦.

(٤) الجابري، العقل السياسي العربي، ص٨٧.

لا طاقة لهم بها ، ولهذا تغيرت موازين القوى بعدها وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله بعد عودة الأحزاب عن المدينة: (نغزوهم ولا يغزونا)[١]، كما واصل النبي ﷺ مواجهته لنفوذ قريش من خلال اقامة المعاهدات مع كثير من القبائل بعد صلح الحديبية، وقد جاءت هذه القبائل فيما بعد لتعلن دخولها في الإسلام وقدمت ولائها السياسي للرسول ﷺ.

ولقد ظل منطق القبلية – فضلاً عما يمكن ان يفسر بانه كان مرحلة استكشاف لحقيقة هذا الدين – تحكم بعض رجال بني هاشم وغيرهم في مكة ممن لم يدخلوا الإسلام على عدم الدخول في مواجهة مع النبي ﷺ، من ذلك استمرار عمه العباس بارسال اخبار مكة اليه في المدينة ، وحين خرجت قريش لقتال المسلمين في بدر خرج معها بعض بني هاشم وغيرهم كرهاً وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: (اني عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد اخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم احداً من بني هاشم فلا يقتله...)[٢] فهم قد خرجوا مع قريش تحت ضغط التضامن القبلي، ولهذا فان كثيراً منهم قد رجعوا من جيش قريش بعد ان علموا بنجاة القافلة التجارية التي كانت بقيادة ابو سفيان ورفضوا مواصلة المسير لقتال النبيﷺ، ولما رأى رجال ابو جهل ذلك قالوا لهم: (والله لقد عرفنا يا بني هاشم وان خرجتم معنا أن هواكم لمع محمد)[٣].

لقد ارادت بعض القبائل ان تجعل امر القبول بالدين وسيلة للحصول على مكاسب سياسية اكثر منها دينية تتمثل في انتقال امر حكم الأمة لها بعد وفاة النبي ﷺ، وذلك ما عبر عنه احد زعماء بني عامر بن صعصعة حين عرض النبيﷺ عليهم الإسلام فاجابه احدهم: (ارأيت ان نحن بايعناك على امرك ثم اظهرك الله على من خالفك

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، الأحاديث، ٤١٠٩و٤١١٠؛ وينظر ابن كثير، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) البداية والنهاية، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، ط١(دار هجر للطباعة والنشر-١٩٩٧) ج٦/٦٨.

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية،ق١/ج١/ ٦٢٩

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية،ق١/ج١/ص٦١٩. الجابري، العقل السياسي الإسلامي ، ص٨٦

ايكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال: الأمر الى الله يضعه حيث يشاء .فقال له : افتهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بامرك ، فابوا عليه)[١]، فسؤاله عن الأمر من بعد النبي ﷺ انما يعني السلطة، وهو بذلك يعبر عن حسابات وخيال سياسي قبلي لا ديني .

وكان مسيلمة الكذاب ينظر الى مسألة النبوة انها مقاسمة للسلطان وهو سلطان القبيلة بنظره ، اذ كان يعتقد بان رسول الله ﷺ يمثل سلطان قبيلة قريش ولهذا اراد ان يشارك بهذا السلطان وقد عبر عن هذا الأمر في كتابه الذي ارسله الى رسول الله ﷺ يقول فيه: ((من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله، اما بعد فاني قد اشركت في الأمر معك وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون)) فاجابه رسول الله ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، اما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين))[٢]

اما في اطار الأحقية لحكم الأمة وخلافة رسول الله ﷺ وبما يشير الى جعل القبيلة الى جانب العقيدة كعنصر مهم في تحقيق هذا الغرض ، ففي اواخر حياة النبيﷺ وحين اشتد عيه المرض كان عمه العباس بن عبد المطلب ﷺ قد اثار مسألة الخلافة مع ابن اخيه علي بن ابي طالب ﷺ اذ قال له: (اذهب بنا الى رسول الله ﷺ فلنسأله في من هذا الأمر، ان كان فينا علمنا ذلك، وان كان في غيرنا علمناه فاوصى بنا، فقال علي ﷺ انا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، واني والله لا أسألها من رسول الله ﷺ[٣].

وهكذا فقد استحضرت الفكرة السياسية حول الحكم – الخلافة – بعد رسول الله ﷺ لدى العباس ﷺ وهذا الإستحضاركان متعلقاً بان يكون لبني هاشم على ما

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١/ج١/ص٤٢٤-٤٢٥.

(٢) الطبري، تاريخ ، ج٣/١٤٦؛ حميدالله ، محمد ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ،ط٥ (دار النفائس – بيروت– ١٩٨٥) ص٣٠٥

(٣) الطبري، تاريخ ، ج٣/١٩٣-١٩٤؛ المقريزي ، النزاع والتخاصم ، ص٧٥.

يرون من اهليتهم واحقيتهم من الوجهة الدينية ومكانتهم في الإسلام بان يكون الأمر لهم .

اما ما ورد بشأن الوصية لعلي ﷺ فلو انها كانت موجودة ومعروفة لدى الصحابة لرأينا ذلك واضحاً من خلال اتخاذ علي بن ابي طالب ﷺ موقفاً ثابتاً ومعارضاً لكل من يدعي الخلافة لنفسه، ولأعلنها علانية ودافع بها عن حقه وهذا ما لم نجده ،ويؤكد ذلك ما ورد فيما قاله حينما كانت تدور المناقشات بين جماعة الشورى الذين عينهم امير المؤمنين عمر ﷺ بعد طعنه اذ قال: (... نحن بيت النبوة ومعدن الحكمة وامان اهل الأرض ونجاة لمن طلب، لنا حق ان نعطه نأخذه وان نمنعه نركب اعجاز الإبل ولو طال السُّرى ، لو عهد الينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى الموت ...)[١]، فضلاً عن انه لا يعقل ان يكون مجتمع الصحابة ﷺ قد عمدوا بهذه السرعة لمخالفة امر الرسول ﷺ بالوصية، ولوجدنا ابا بكر وعمر ﷺ وغيرهم من الصحابة قد بادروا الى مبايعته دون تردد وكلهم كان يعرف لعلي ﷺ مكانته وسبقه وبلاؤه في الإسلام، اما اذا اريد اسناد هذا الأمر الى منطق القبيلة والتقاليد العربية ، فان القبيلة حين مارست الوراثة في الرئاسة فقد جعلته من الأب الى الإبن الأكبر ومارست نقل السلطة بالنص والتعيين ، اذ يختار رئيس القبيلة لرئاسة قومه من بعده من بين اولاده من هو أليق بها من غيره ، ومارست القبيلة ايضاً نقل السلطة عن طريق الشورى ، اذ لم يكن لرئيس القبيلة ابناء او عند وجود تنافس يخشى منه انقسام القبيلة على نفسها فيحسم الأمر باختيار رجل قريب او بعيد عن رئيس القبيلة يجدونه اهلاً وكفوءاً لتولي الرئاسة[٢].ومما يعزز هذا الأمر ما ورد من ان امير المؤمنين علي ﷺ حين طعنه الخارجي ابن ملجم سأله اصحابه ألا تستخلف فقال : (لا ، ولكني اترككم كما تركككم رسول اللهﷺ)[٣]وفي رواية: (لا آمركم

(١) الطبري ، تاريخ، ج٤/٢٣٦.

(٢) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٤/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) ابن كثير.، البداية والنهاية، ج١١/٦.

ولا انهاكم انتم ابصر)[١]، وتوفي رسول الله ﷺ وترك امر الخلافة من بعده يعالجه المسلمون بالكيفية التي تعالج هذا الأمر .

القبيلة والسياسة في العصر الراشدي :

اتخذت ممارسة فعل القبيلة في السياسة خلال العصر الراشدي اشكالاً عدة تنوعت بحسب الأحداث السياسية التي تمر بها الدولة وطبيعة معالجة الخلافة لها ، على ان هذه المعالجات كانت في اطار النظرة الى ان المحرك الأول لمعالجة الأحداث انما هو في اطار العقيدة ، وفي الصفحات القادمة سنحاول ان نستعرض بعضاً من ثنائية القبيلة والسياسة ضمن سياق الأحداث التي شهدها هذا العصر كامثلة على ما نريد الحديث عنه .

كان لوفاة النبي ﷺ الأثر البالغ في نفوس المسلمين ، واذ انه لم يكن قد عين احداً يخلفه من بعده ولم يترك وصية بذلك يجتمع المسلمون عليها من بعده ودليل ذلك ما دار بين الصحابة –المهاجرين والأنصار– ﷺ في امر اختيار من يخلف رسول الله ﷺ، اذ لو كان قد اوصى من بعده لأحد او نص عليه لما تجرأ احد من المسلمين ان يخالف امره ، ومن هنا تبدأ مسألة معالجة المسلمين لأمر الحكم – الخلافة– من بعده التي اصبحت منوطة بهم لإختيار من هو اصلح وأقدر على قيادة الأمة وتولي امرها.

تسارعت الأحداث حول الحديث عن مسألة الحكم ففي الوقت الذي كانت يجري فيه تغسيل رسول الله ﷺ بدا الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتداولون امر الخلافة ومن له الحق بها، ووصل خبرهم الى المهاجرين وعلى رأسهم ابو بكر وعمر ﷺ فانطلقوا مسرعين للحاق بالأنصار قبل ان ينفضوا من اجتماعهم فوافوهم في اجتماعهم بالسقيفة[٢] ومن هنا يبدأ الحوار بين المهاجرين والأنصار عن ولاية الأمر بعد رسول الله ﷺ واخذت الآراء تطرح ، وكلٌ يعرض رؤيته وأنه الأحق به دون ان ينكر احدهم

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٥/١٤٦-١٤٧

(٢) الطبري ، تاريخ ،ج٣/٢٠١

مكانة الآخر وبلاؤه في الإسلام ، وكيف لا يكون ذلك وقد قام الإسلام على اكتافهم وقد شهد لهم رسول الله ﷺ بما كان منهم(١).

اننا لا نريد ان نستعرض كل ما جرى في السقيفة ولكننا نريد ان نقف عند المحددات التي طرحت في السقيفة التي كان فيها استحضار لفعل القبيلة ، ليس بمعنى ان القبيلة ستكون سابقة للعقيدة او منافسة لها في الإختيار ، ولكن كيف وضفت القبيلة في تعزيز الإختيار ، اذ لا شك ان المكانة الدينية والإلتزام بما جاء به القرآن الكريم وبما سنه النبي ﷺ هو المتقدم في كل امر ولكن حيث ان الإسلام قد جاء بالمبادئ العامة الأساسية المتعلقة بنظام الحكم مثل مبادئ الشورى والعدالة والحرية والمساواة، ولكنه لم يتعرض للتفصيلات والجزئيات والأساليب وغيرها من الأنظمة الجزئية التفصيلية التي يبين لنا التاريخ انها دائمة التغيير والتطور تبعاً لتغير وتطور ظروف البيئة الإجتماعية والسياسية ، فالإسلام لم يفرض نظاماً معيناً من انظمة الحكم يوجب على المسلمين اتباعه، وعلى هذا الأساس يكون على المسلمين مهمة الوصول الى ايجاد ذلك النظام السياسي لحكم الدولة، الذي يكون ملائماً وقادراً على تحقيق حاجاتهم، على ان لا يكون فيه ما يتعارض واحكام الشريعة المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع، وهذا يعطي الشريعة الإسلامية ميزة كبيرة بانها تضع الأصول وتدع ما وراء ذلك لإجتهاد العقل البشري لأن مصالح الناس تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والبيئة(٢)، وعليه فسيكون ما نتعرض له من دور القبيلة هنا انما يكون من خلال ما ينظر اليه انه من ضمن الوجهة الدينية وانها تقع ضمن اطاره وليس خارجاً عنه .

بعد ان اجتمع الأنصار في السقيفة كان مرشحهم الوحيد سعد بن عبادة – سيد الخزرج– ولم يكن احد سواه، أي ان الأوس لم ترشح احداً منها، وبالتالي كان ترشيح

---

(١) ابن قتيبة الدينوري،ابي محمد عبدالله بن مسلم(ت٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة، ط١(دار الأضواء –بيروت–لبنان–١٩٩٠) ج١/٢٣-٢٤.

(٢) منصور، علي علي، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ط١(مطبعة مخيمر– لا.مكان – ١٩٦٥) ص٢١٨.

ابن عبادة يمثل رأيهم جميعاً ، وقد عبر سعد بن عبادة عن أحقية الأنصار بالأمر بقوله: (يا معشر الأنصار ، ان لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ... فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به)[١]، وهكذا جعل ابن عبادة المعيار الأول في الأحقية السابقة والفضيلة في الإسلام وربطها بانها ليست لقبيلة من العرب، غير ان المهاجرين –من قريش– هم اسبق بهذا الأمر ولهم الفضيلة به ايضاً، وقد تنبه بعض الأنصار لهذا الأمر وأدركوا أنهم ليسوا وحدهم أصحاب الحق بطلب الخلافة، وقد تحادث هؤلاء بالأمر وترادّوا الكلام بينهم فقالوا: (فان أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون وأصحاب رسول الله ﷺ الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعون هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فانا نقول اذن: منا امير ومنكم امير ولن نرضى بدون هذا الأمر ابداً، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا اول الوهن)[٢]. ولما وصل ابو بكر وعمر ومعهم ابو عبيدة ﷺ الى السقيفة ، دخلوا على الأنصار وهم مجتمعون فاخذ ابو بكر ﷺ يكلمهم مبيناً لهم اولاً مكانة المهاجرين في هذا الدين، ثم اشار الى مكانة الأنصار وان ليس احد بمنزلة الأنصار بعد المهاجرين، ثم اخبرهم انه ليس لأحد الحق بهذا الأمر من المهاجرين فقال: (نحن الأمراء وانتم الوزراء لا نفتات دونكم بمشورة ولا تنقضي دونكم الأمور)[٣] ثم عمد بعد ذلك الى ان يضيف عاملاً آخر يعزز احقية المهاجرين الا وهو انهم من قريش وان فضل قريش معروف على سائر قبائل العرب قائلاً: (ولن تعرف العرب هذا الأمر الاُ لهذا الحي من قريش)[٤]، وقد جاء في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان)[٥]، وفي رواية

(١) الطبري،تاريخ،ج٣/٢١٨.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج٣/٢١٨-٢١٩.

(٣) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج١/٢٤؛ الطبري،تاريخ،ج٣/٢١٩-٢٢٠

(٤) الطبري ، تاريخ ،ج٣/٢٠٥.

(٥) صحيح مسلم ، ج٢/١٨٣- كتاب الإمارة .

ذكرها الطبري[١] ان ابي بكرﷺ قد ذكّر سعد بن عبادة بهذا الأمر حين قال له: (يا سعد ان رسول الله ﷺ قال وانت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم) فصدقه سعد. وقد ورد في صحيح البخاري[٢] حديث يقارب هذا القول اذ جاء فيه ان رسول الله ﷺ قال: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم). وقد كان مما بايع عليه الأنصار رسول الله ﷺ (ولا ننازع الأمر اهله)[٣]، وهذا يعني ان المهاجرين وهم من قريش اهل الأمر وقد خصهم فيه رسول الله ﷺ، كما ان الأوس حين رأت ما صنع بشير بن سعد من سرعته في مبايعة ابي بكر ﷺ واقراره بحق قريش بهذا الأمر وما رأت مما كانت تدعو اليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ان قال بعضهم لبعض ومنهم اسيد بن حضير وكان احد النقباء: (والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً ابداً ، فقوموا فبايعوا ابي بكر فقاموا فبايعوه)[٤]، ولا بد من القول ان ما كان ياتي من ذكر القبيلة في سياق الحوار الذي كان يدور في السقيفة وبهذه الكيفية وكمحدد يقوي حجة المهاجرين لم يكن دعوة للعصبية القبلية لقريش ، وما كان ليتكلم به ابا بكر ﷺ وفق هذا الإطار وقد علم ان رسول الله ﷺ قد نبذ العصبية بين القبائل واحل مكانها رابطة العقيدة ، ويمكن القول ان ربط هذا الأمر بقريش وكما اشار اليه ابن خلدون[٥] يعود الى: (اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة واهلها فاشترط نسبهم القريشي في هذا المنصب وهم اهل العصبية

(١) تاريخ،ج٣/٢٠٣

(٢) البخاري ،الحديث ٣٤٩٥

(٣) ابن حنبل . الإمام ابو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) ، مسند الإمام احمد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ط٢(مؤسسة الرسالة- ١٩٩٩) الحديث ٢٢٦٧٩؛ ابن هشام،السيرة النبوية،ق١/ج١/٤٥٤.

(٤) ابن قتيبة الدينوري،الإمامة والسياسة،ج١/٢٦؛ الطبري ، تاريخ،ج٣/٢٢١-٢٢٢.

(٥) عبدالرحمن بن محمد (ت٨١١هـ) ، المقدمة ، (دار الكتاب المصري—دار الكتاب اللبناني- ١٩٩٩) ص ٣٤٥-٣٤٦ .

القوية ليكون ابلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة، واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر اجمع فاذعن له سائر العرب وانقادت الأمم سواهم الى احكام الملة).

كان الإتجاهان الإسلامي بقوته والقبلي بما كان يراه المسلمون مما لا يتنافى مع الدين حاضرين في مسألة اختيار الخليفة للمسلمين مع تأكيدنا ان الإتجاه الإسلامي كان هو الأقوى والمتقدم من خلال تقديم النبي ﷺ لأبي بكر ﷺ لأمامة المسلمين بالصلاة في مرضه الأخير فضلاً عما كان من سابقته في الإسلام وصحبته له وهجرته معه، اما ما كان ينظر اليه مما يتماشى مع التقاليد العربية التي لم يبدلها الإسلام فهو سنه وخبرته، ومعلوم ان التقاليد القبلية لا تقر بمبدأ الوراثة بالحكم بشكل مطلق، وان كانت تعترف بسيادة فخذ او قبيلة، وهكذا كان اختيار ابي بكر ﷺ وهو لم يكن من اكبر بيوت قريش ويذكر ان ابا سفيان اشار الى هذا الأمربقوله لعلي ﷺ حين علم بمبايعة الناس لأبي بكر ﷺ اذ قال له: (اغلبك على هذا الأمر اقل بيت في قريش، اما والله لأملأنها خيلاً ورجالاً ان شئت، فقال له علي ﷺ ... انا رأينا ابا بكر لها اهلاً)[١]، وهكذا كان المهاجرون يحتجون على الأنصار بانهم عشيرة رسول الله ﷺ ويقول المقريزي[٢] (ان النبي ﷺ جعل الخلافة لعامة قريش ولم يخص بها اهل بيته ولا بني هاشم حتى لا يتخيل متخيل انه ملك متوارث والله سبحانه اعلم).

لقد شهدت الخلافة الراشدة احداثاً عدة كانت القبيلة حاضرة بها ومؤثرة في احداثها، فالردة التي حدثت اواخر حياة النبي ﷺ وبداية خلافة ابي بكر ﷺ كانت متباينة في دوافعها، فمنها ما كانت تمثل ارتداداً عن الدين كرغبة منها في عدم استمرار الخضوع لأحكام هذا الدين او لسلطان المدينة وانهاء التزامها بما عاهدت عليه رسول الله ﷺ، وهذا مدفوع بالرغبة القبلية لديها بان تنفك من ارتباطها بهذا الدين، اذ لا تزال تعيش في مخيلة القبيلة قبل الإسلام وعدم قبولها الخضوع لسلطان

(١) المقريزي، النزاع والتخاصم ، ص٥٥ .

(٢) النزاع والتخاصم ، ص٩٢.

غير سلطان نفسها، فبعض القبائل التي قدمت ولائها للنبي ﷺ قد عدته ولاءً شخصياً له ينتهي بوفاته، فلم يعد لزاماً عليها ان تستمر بالخضوع لحكم ابي بكر ﷺ، وقد عبر عنها قول الشاعر :

أطعنا رسول الله ما كان فينا فيا لعبـــــــاد الله ما لأبي بكر

أيورثنا بكراً اذا مـــــات بعده وتلك لعمر الله قاصمـــــة الظهر[١]

ومنها ما كان ينظر الى ان دفع الزكاة هو اتاوة تدفعها قبائل العرب لزعماء قريش ولهذا ربطوا استمرارهم بالسمع والطاعة باعفائهم من دفعها ، فعندما مر عمر بن الخطاب ﷺ بقرَّة بن هبيرة ومن معه من بني عامر قال له قرَّة : (يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا أرى إلا ان تجتمع عليكم)[٢]، وقد كان ابو بكر ﷺ قد عرف النزعة القبلية لدى هؤلاء ولهذا فانه جعل الإمتناع عن دفع الزكاة يمثل خروجاً عن الدين وسلطان المدينة فحاربهم عليها[٣].

بعد ان طعن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وقبل وفاته كان قد عين مجلس شورى يضم ستة من صحابة رسول الله ﷺ الذين توفي وهو عنهم راضٍ ليختاروا واحداً من بينهم، ووضع لهم اسساً ونظاماً لذلك، فلما توفي ﷺ و بدأت المشاورات بينهم ثم تنازل وانسحب البعض منهم من ترشيح نفسه انحصر الأمر بين اثنين منهما هما عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب ﷺ، فلما اخذ عبد الرحمن بن عوف يستشير اهل المدينة عمن يختارونه ، كان بعضهم يشير بعثمان ﷺ وآخرون يشيرون بعلي ﷺ ولكن الأكثرية كانت تشير بعثمان ﷺ، ومعلوم ان كليهما كانت له مكانته ومآثره في الإسلام ولكن هذه الأكثرية كانت متاتية في ان اهل المدينة كانوا يرون ان علياً ﷺ ان ولي الأمر فستكون سياسته معهم استمراراً لسياسة امير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في التشديد عليهم اما عثمان ﷺ فسيكون

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٣/ ٢٤٦.

(٢) الطبري ،تاريخ،ج٣/٢٥٨.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١/٣٥ ؛ الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام،ص٥١.

اقل حدة معهم ، اما هذه الأكثرية في جانبها القبلي فهي متأتية من ان بني امية كانوا اكثر من بني هاشم في المدينة، على ان هذه الأكثرية لم تكن جديدة بل هي تمتد الى ما كان عليه عدد المسلمين بمكة في بداية الدعوة ، اذ كان عدد المسلمين من رجال بني هاشم والمطلب (١٢) رجلاً فقط، بينما كان عددهم من بني عبد شمس (٢٦) رجلاً[١] ولايعني هذا احقية بني امية في نزاعهم مع بني هاشم، ويتعجب المقريزي[٢] من تطاول بني امية للخلافة وكيف حدثتهم انفسهم بذلك ...، ثم يقول: (فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله ﷺ ولا في عمال ابي بكر وعمر (رضي الله عنهما) احد من بني هاشم، فهذا وشبهه هو الذي حدد انياب بني امية وفتح ابوابهم واترع كأسهم وفتل امراسهم)[٣]، وقوله هذا جاء بعد ان اورد فصلاً عن تولية رسول الله ﷺ اعماله لبني امية[٤]، وبناءً على ذلك فان توليهم للأمر من جانب الكفاية الإدارية فلا شائبة فيه، ومع هذه الكفاية وهذا التفوق العددي لبني امية على بني هاشم الاّ ان اختيار عثمان بن عفان ﷺ للخلافة كان المعيار الأول فيها صفاته وما قدمه للإسلام .

لقد كان هذا التوجه في الإختيار للخلافة بعيداً عن بني هاشم يستشعره علي بن ابي طالب ﷺ بانه متاتي من نظر الناس الى ان امر الخلافة ان اصبح في بني هاشم فانه لن يخرج منهم ابداً وان اصبح في غيرهم تداولته قريش بينها ، وهذا يعني نظرة تتحدد في اطار القبيلة الواحدة – قريش – وقد عبر عن نظرة الناس هذه بقوله: (ان الناس ينظرون الى قريش وقريش تنظر الى بيتها فتقول: ان ولي عليكم بنوهاشم لن تخرج منهم ابداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم)[٥].

---

(١) الجابري، العقل السياسي العربي، ١٤٧؛ العلي، صالح احمد، محاضرات في تاريخ العرب، (دار الكتب للطباعة– الموصل –د.ت) ج١/٣٨١-٣٨٣.

(٢) النزاع والتخاصم ، ص ١–٢.

(٣) النزاع والتخاصم ، ص٣٤.

(٤) النزاع والتخاصم ، ص٧٠–٨٤.

(٥) الطبري ، تاريخ ،ج٤/٢٣٣.

في السنوات الأخيرة من حكم امير المؤمنين عثمان ﷺ نشبت الفتنة واتقدت نارها عليه في الأمصار – مصر والكوفة والبصرة – وكان من ابرز اسبابها اتهامه بتقريبه لبني امية ومحاباته لأقربائه الى جانب اتهامات اخرى لم تكن الاّ ذرائع لهم لتنفيذ ما ارادوا القيام به ضد الخليفة ، وقد كانت القراءة الإقتصادية لبعض ما كان يصدر من عمال الخليفة قد اسهمت في تعزيز المعارضة للخليفة، لأن ما كان يطرحة بعض هؤلاء العمال يمثل استعلاءً قبلياً لقبيلة ما على غيرها، اذ ورد انه في مجلس لسعيد بن العاص في الكوفة وكان يجلس فيه مالك الأشتر وهو من زعماء اليمانية دار حديث ورد فيه ذكر سواد العراق فتكلم سعيد بكلام قال فيه: (انما السواد بستان قريش ..فقال مالك الأشتر: اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك؟ والله ما يزيد اوفاكم فيه نصيباً الاّ ان يكون كأحدنا)[١]، فاياً كانت مقاصد سعيد بن العاص فانها اثارت زعماء القبائل في الكوفة ، فضلاً عن ذلك فان خروج هؤلاء واثارتهم الفتنة كان يمثل شكوى القبائل من نفوذ قريش ، فالقبائل بنزعتها البدوية تكره الحكم المركزي ولم ترض يوماً سيادة قريش ، كما انها وبحسب ما تراه كانت تنظر الى ان قريش التي استأثرت بالخلافة والسلطة ولم تشاورها في امر من تختاره وهذا جعلها تسهم في الفتنة التي ثارت ضد الخليفة عثمان ﷺ[٢] والتي انتهت باستشهاده.

بعد استشهاده عمت الفوضى المدينة اذ مضت خمسة ايام واميرها الغافقي بن حرب، وكان من رؤوس الذين خرجوا على الخليفة، والذين سعوا لإيجاد واحد ممن بقى من اهل الشورى – علي وطلحة والزبير ﷺ– ليتولى الخلافة وقد عرضوها على كل واحد منهم فابوا جميعاً ان يدخلوا فيه لسببين مهمين: اولهما ان مسألة اختيار من يتولى امر المسلمين ليست بيد هؤلاء بل هي للصحابة من اهل المدينة

(١) الطبري، تاريخ ،ج٣٢٣/٤؛ ابن الأثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم، ت(٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق ابي الفداء عبدالله القاضي، ط١(دار الكتب العلمية–بيروت–لبنان–١٩٨٧)، ج٣/٧٠.

(٢) الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، ص٦١.

– اهل الشورى واهل الحل والعقد وكبار الصحابة في المدينة –، والسبب الثاني لئلا يتهم من يقبل الخلافة من هؤلاء الصحابة انه معهم وانه شريك في دم الخليفة المقتول، غير ان كبار الصحابة وبعد ان رأوا انه لا بد من رجل يتولى شأن المدينة وتنظيم شؤون الناس ساروا الى علي ﷺ فالحوا عليه بقبول الخلافة والبيعة له فتم ذلك(١) .

لم تصف الأمور لأمير المؤمنين علي ﷺ طيلة مدة خلافته (٣٦-٤٠هـ) ولقد عانى الأمرين في محاولة جمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها، الا أن ذلك لم يتم له، اذا كان ابرز ما واجهه هو مسألة المطالبة بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان ﷺ، وقد كان على هذا الرأي أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ﷺ في الحجاز و معاوية بن أبي سفيان ﷺ ومن معه من اهل الشام، اذا كانوا يرون التعجيل بالقصاص حتى لا يفلت هؤلاء القتلة من أيديهم، وبين ما كان يراه هو من التأني بهذا الامر حتى يقوى امره وتستقر احوال الناس ويكون قادراً على انفاذه وإقامة الحد عليهم لا سيما وان هؤلاء القتلة لا يزالون يمسكون بزمام الامور في المدينة وانهم ليسوا قلة ، فضلاً عن منعتهم في قبائلهم(٢).

كانت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) تطالب بالقصاص من القتلة وكانت في الوقت نفسه تسعى للإصلاح بين الناس وجمع كلمتهم ليكونوا قادرين على انجاز هذا الأمر ، وهو ما قادها فيما بعد للخروج الى البصرة ومعها طلحة والزبير ومن تبعهم .

وامام هذه التطورات وبسبب ما كان من استمرار سيطرة أولئك الذين قتلوا الخليفة ومن معهم من قبائلهم على المدينة وعدم امكانية أمير المؤمنين علي ﷺ من تطبيق المنهج الاسلامي الذي كان يريده على هؤلاء والقصاص منهم فضلا عن النزعة القبلية التي كان يحملها هؤلاء ولكي لا تكون المدينة هي مركز النزاع اضطر الى الخروج منها، وهو ما يعني ترك مركز التيار الاسلامي ليتوجه الى

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٤/٤٢٧.

(٢) الطبري، تاريخ،ج٤/ص٤٣٧.

الكوفة اذ مركز التيار القبلي واذ يكون الرجال والاموال[١]، ومما يمكن ان يستشف من هذا الامر ان امير المؤمنين علي ﷺ كان يمثل التيار الاسلامي الذي اراد تطبيقه في سياسته الا انه لم يجد المجال الاجتماعي الذي ينفذه فيه ، اذ ان وجوده في اهل العراق ذوي التوجهات القبلية لم يكن ليسمح له بتطبيقه ، ولهذا عانى معهم الكثير،اما تطبيق معاوية ﷺ لسياسته في الشام فكانت اكثرنجاحا في مجال اجتماعي قبلي ينسجم في استجابته مع سياسة اميره .

تطورت الاحداث وبدأت الامة في حالة التصدع السياسي وافتراق كلمتها وتشعب أرائها ، الامر الذي قاد الى ان تشهد هذه المدة حربين كبيرتين بين المسلمين – الجمل وصفين – كان الطرفان فيها المسلمون الذين فيهم من صحابة رسول الله ﷺ ولا نريد ان ندخل في تفاصيلها، غير انه يمكن القول ان مع الدوافع الدينية التي كانت تؤطر اسباب قيامها وهي القصاص من قتلة الخليفة عثمان ﷺ، الا ان هناك من يرى فيها جانبا من حرب بين اطراف قريش خرجت للقتال فيما بينها اذ ورد ان ابي موسى الاشعري ﷺ وكان عاملا لأمير المؤمنين علي ﷺ على الكوفة كارها للقتال وانه لم يشأ ان يرى قتالا سيكون طرفاه المسلمين وفيهما الصحابة ، وقادتها في كلا الطرفين من قريش وانه اياً كان المنتصر فانه من قريش، فلم يشأ ان يزج الناس به اذا قال لهم: (ايها الناس اطيعوني وكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوي اليكم المظلوم ويامن فيكم الخائف، ان اصحاب رسول الله ﷺ اعلم بما سمعنا ، الفتنة اذا اقبلت فقد شبهت، فاذا ادبرت بينت، وان هذه الفتنة فاقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب والصبا والدبور، فتسكن احيانا فلا يدرى من اين تؤتى ،تذر الحليم كابن أمس، شيموا سيوفكم وقصدوا رماحكم وارسلوا سهامكم وقطعوا اوتاركم والزموا بيوتكم، خلوا قريشاً اذ أبو الا الخروج من دار الهجرة وفراق اهل العلم بالإمرة ترتق فتقها وتشعب صدعها فان فعلت فلأنفسها سَعَت وان ابت فعلى انفسها مَنَت ....)[٢]. وفي موقف اخر كان هناك في

(١) الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٦٦.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج٤/٤٨٣-٤٨٤.

معسكر امير المؤمنين علي﵁ من يضمر بقلبه حقداً لاجتماع كلمة المسلمين الذي خرجت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لإقامته من خلال الإصلاح بين الناس ومعالجة الحال الذي مرت به الامة بمقتل الخليفة عثمان ﵁، فكان البعض لا يرغب بإقامة الصلح بين المعسكرين لخشيته ان تكون عاقبه هذا الأمر على رؤوسهم وان يؤخذوا بالقصاص وعلى رأس هؤلاء حكيم بن جبلة الذي كان على الخيل في جيش عثمان بن حنيف – ضمن جيش اهل العراق اذ سعى لان ينشب القتال بين الطرفين فقدم اصحابه نحو معسكر أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فامسكوا عن الرد عليه لعله يرجع عنهم فلم يفعل، ثم شرع بالقتال فلم يردوا عليه الا بقدر الدفاع عن انفسهم لحرصهم على الا يشب القتال بين المسلمين اذ لم يكن هذا غرضهم، غير ان حكيم استمرفي مهاجمتهم بخيله وهو يقول: (انها قريش ليردينها جبنها والطيش)[١]، وهو بقوله هذا انما يعبر عن قبلية حاضرة في ذهنه تتركز في صراع بين قريش يمثلها أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير ﵁ ومن معهم من جهة، وقبائل العرب من جهة اخرى وهم اغلب جيش امير المؤمنين علي ﵁ اذ لم يكن معهم الا القليل من رجال قريش، ولعل هذه القلة جاءت من السياسة الشديدة التي اتبعها ضد رجالها منذ ان ولي الخلافة لا سيما بعد ان رأى هروب رجال بني امية من المدينة بعد توليه لها، فهاجه ذلك واخذ يحول بينهم وبين خروجهم الى الامصار حتى قال بعض من رأى ذلك منه: (لا نراه الا سيكون على قريش اشد من غيره)[٢].

لقد آلت الظروف الى نشوب الحرب بين الطرفين بعد ان تمكن دعاة الفرقة ممن اسهموا بقتل الخليفة عثمان ﵁ من ذلك وقضوا على فرصة الصلح التي كادت ان تتم ، فكانت معركة الجمل سنة ٣٧هـ ، وعلى الرغم من انها لم تطل واوقعت من الطرفين ما اوقعت فانها في الوقت نفسه امكنت من الوصول الى بعض الذين اسهموا بقتل الخليفة عثمان ﵁ منهم حكيم من جبلة وكثير من اصحابه، وافلت

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٤ / ص٤٦٦.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج٤ / ص٤٣٧.

منهم حرقوص بن زهير اذ هرب هو ومن بقي معه الى قبائلهم، وهنا يظهر اثر كل قبيلة في كيفية تعاطيها مع هذا الامر فبعد ان نادى منادي طلحة والزبير ﷺ في القبائل: (الا من كان فيهم من قبائلكم احد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم، فجيء بهم ... فقتلوا فما افلت منهم من اهل البصرة جميعا الا حرقوص بن زهير فان بني سعد منعوه وكان من بني سعد)[١]، وقد كتبت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) الى اهل الكوفة بما جرى وتحثهم على عدم نصرة من كان من قتلة عثمان ﷺ وتحثهم على طلب الثأر ممن كان من قتلته .

لم يكن تناصر القبائل في البصرة لأولئك الذين كانوا من افرادها ممن اشترك في قتل الخليفة عثمان ﷺ واحداً ، فمنها من دفعت بابنائها واسلمتهم الى القصاص ليأخذوا جزاء جرمهم، وبهذا كان الوازع الديني لديها أعلى من الوازع القبلي والعصبية القبلية فكان اختيارها هو الصحيح، ومن القبائل من آثرت الا تنفض عنها تلك العصبية فسعت الى منع احد من الوصول الى رجالها مهما كان الثمن الى ذلك، وقد حذر القعقاع بن عمرو ﷺ أم المؤمنين وطلحة والزبير ﷺ حينما ارسله امير المؤمنين ﷺ ليسألهم عن سبب قدومهم الى البصرة من ان طلب دم الخليفة المقتول لا يكون الا باجتماع كلمتهم مع كلمة امير المؤمنين علي ﷺ وان سعيهم بطلب الدم هكذا قد اثار القبائل التي ينتمي لها القتلة واخبرهم ان طلب القتلة لن يكون هكذا ولا يستقيم امرهم به وانهم حين قتلوا قتلة عثمان ﷺ من اهل البصرة وهم ستمائة الا رجلا غضب لهم ستة الاف من قبائلهم وناصبوهم العداء وافلت حرقوص بن زهير ومنعهم منهم ستة الاف ايضاً[٢]، كما نجد ان بني سعد وعلى الرغم من انهم كانوا عثمانية ومعرفتهم ان حرقوص بن زهير كان من الذين اشتركوا بقتل الخليفة الاّ انها وقفت تحميه وتمنعه ، ولكنها عادت وآثرت اعتزال امر الطرفين بعد ان اصابها ضرر كبير بسبب الأجل الذي ضربه لهم طلحة والزبير ﷺ لتسليمه ومن معه، وكذلك فان بني عبد القيس قد غضبوا بسبب قتل عدد من رجالها متناسية انهم

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٤ / ص٤٧٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج٣ / ص١٢٢.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج٤/ ٤٨٨-٤٨٩.

دفعوا جزاء ما اقترفوه بحق الخليفة المقتول[١]، وعلى الرغم من ظهور هذه العصبيات القبلية لدى البعض ممن لم يغادر الفعل السلبي للقبيلة مخيلته، الاّ اننا نجد ان ما كان يتحدث به الطرفان سواء ام المؤمنين ومعها طلحة والزبير ﷺ ام امير المؤمنين علي ﷺ فانها كانت تعبر عن الحرص على توحيد امر الأمة وان الأخوة الإسلامية هي التي كانت قائمة ولم يكن للقبيلة اثر فيما كانوا يقولونه ولم يطعن احدهم بالآخر.

لقد حدثت معركة الجمل دون ان يكون هناك تدبير مسبق من أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ومن معها لدخول المعركة ، فهي لم تخرج للقتال ولكنها خرجت لقصد الإصلاح بين الناس والقصاص من القتلة وضنت ان في خروجها مصلحة ، فلما تبين لها فيما بعد غير ذلك وان ترك الخروج كان اولى لها ولأجل ذلك كانت تبكي حتى يبل خمارها كلما ذكرت ذلك اليوم ، وندم اكثر المسلمين من الطرفين ، فكانت ام المؤمنين تقول: (والله لوددت لو اني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[٢]، وكان امير المؤمنين علي ﷺ يقول لابنه الحسن ﷺ: (يا بني لم أران الأمر يبلغ هذا) ويقول له ايضا: (إنا لله يا حسن اي خير يرجى بعد هذا)، على ان معركة الجمل افرزت مسائل مهمة على نطاق مفعول القبيلة في السياسة، اذ لم تستقر الأمور بعدها لأمير المؤمنين علي ﷺ، فأهل الكوفة لن تستقيم طاعتهم له على الوجه الذي كان يريد وقد اتعبوه في كيفية التعامل معهم حتى ضجر منهم وتمنى مفارقتهم بسبب القبلية التي كانت حاضره فيهم وكذلك الحال مع اهل البصرة الذين دخلوا في طاعته ، فالنزعة القبلية التي فيهم ستكون مؤثرة في إدارة الأمور فيما بعد.

لم يكن انتهاء معركة الجمل إلا إيذانا باتخاذ التدابير بدخول بمعركة جديدة –صفين – لفض الخلاف مع امير الشام معاوية بن ابي سفيان ﷺ ومن معه من اهل الشام .

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ج٤/ ٤٧٢

(٢) الطبري، تاريخ، ج٤/٥٣٧؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ /١٤١.

ان اختلاف وجهات النظر في امر القصاص من قتلة الخليفة عثمان ﷺ هي التي ستقود الى حرب صفين ايضا، اذ ان معاوية ﷺ كان من قريش ثم من بني أمية وكان يرى انه الأحق بالمطالبة بدم الخليفة المقتول، ولهذا لم يدع الامر لولي الامر–الخليفة الجديد– لينظر في كيفية القصاص من القتلة فكانت النتيجة ان تعمق الخلاف وقاد الى الحرب .

لا نريد هنا ان نستعرض سير الاحداث في صفين لكلا الطرفين، وما يهمنا هو ان نستقرأ الفعل السياسي للقبيلة وتأثيره في مجريات الاحداث فيها .

تتمثل التركيبة الاجتماعية لرجال جيش العراق وجيش الشام من عناصر متماثلة تقريبا، ففي الطرفين يوجد من الصحابة – المهاجرين والانصار – فضلا عن رجال القبائل العربية التي كانت في العراق والشام، الا ان ما يمكن ملاحظته ان اهل الشام كانوا اكثر استقرارا وانقياداً لاميرهم معاوية ﷺ مما كان علية اهل العراق – الكوفة والبصرة – مع امير المؤمنين علي ﷺ، لاسيما وان في هؤلاء من حركتهم النزعة القبلية في كراهية تقدم رجال قريش فأرادوا ان ينالوا من خلال هذه الحروب مكانة تضاهي بها مكانة رجال قريش .

اما في الشام فلم تكن الأمور هكذا فالاستقرار والطاعة لأميرهم معاوية ﷺ كانت هي القائمة ولا شك أن النزعة القبلية الذي كان يستشعر بها أهل الشام كانت مؤثرة في هذا الامر فمعاوية والخليفة المقتول عثمان ﷺ من بني أمية وهؤلاء من قريش ومعلوم ان كثيراً من قبائل العرب في الامصار لاسيما مصر والعراق – الكوفة والبصرة – كانت تقف بالضد من قريش، وقريش في المدينة كانت قد وقفت ضد بني أمية، وبنو امية سواء في المركز ام الأمصار الأخرى كانوا يعملون على مواجهة هؤلاء للابقاء على مكانتهم، وفضلا عن هذا كان معاوية ﷺ قد استمال القبائل اليمانية في الشام من خلال زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي ام ابنه يزيد[١] واخت حسان بن بحدل الكلبي، فكانت اليمانية سنداً قبلياً قوياً له.

(١) الطبري ، تاريخ ،ج٥/٣٢٩.

كانت مؤثرات التيار القبلي موجودة في جانب أهل العراق وفي مجريات الأحداث في جانب امير المؤمنين علي ﷺ بجانب التيار الإسلامي الذي كان هو الأساس فيما كان يقوم به، وقد برز تأثير التيار القبلي بعد تحرك امير المؤمنين وانتقاله من المدينة الى الكوفة، اذ ان قوة هذا التيار في الكوفة كانت اقوى من التيار الإسلامي وهو عكس ما كان موجود في المدينة ، وهذا التيار القبلي هو الذي كان قد حرك أحداث الفتنة التي قادت الى قتلهم للخليفة عثمان ﷺ اذ لم يكن الوازع الديني لهؤلاء هو الذي جعلهم يقدمون على ما أقدموا علية بقدر ما كان من كراهيتهم لبني أمية التي كانت ممثلة بالخليفة آنذاك .

لم تكن المراسلات التي دارت بين امير المؤمنين علي ﷺ ومعاوية ﷺ لتفضي الى حل الخلاف سلميا، ولهذا اخذ الطرفان التأهب للحرب وخرجوا لبعضهم البعض ونشبت الحرب بينهما وعلى الرغم من توقفها في شهر محرم وفق مراسلات جرت بين الطرفين فأنها عادت بعده ولم ينجح السفراء بين الطرفين في هذا الوقت من عقد الصلح بين الطرفين، وكان من هؤلاء السفراء من لم يحسن السفارة ولم يكن أهلا لها فأثار التباغض والتناحر بين الطرفين[١]، مما قاد الى رجوعهم الى الحرب بعد انقضاء المحرم، وفي هذا الوقت كان امير المؤمنين علي ﷺ قد تنبه الى امر مهم يتعلق بالتركيبة القبلية لجيشه وجيش الشام اذ ان القبائل العربية موزعة فيهما وهذا يعني ان ابناء القبيلة الواحدة اضحوا وجها لوجه في هذه الحرب ولهذا كان علية ان يجد لها طريقة يعالج بها الأمر وبالكيفية التي تمنع قيام ثارات بين القبائل المتحاربة ، ولأجل ذلك عمد الى ان جعل كل قبيلة من جيشه تكفيه اختها من الشام فلما كانت صبيحة اليوم التالي والتقت الجموع بعضها ببعض كان امير المؤمنين علي ﷺ يسأل عن القبائل التي أمامه من أهل الشام فتنسب اليه فلما عرفهم وعلم مراكزهم قال للازد من جيشه : اكفوني الأزد من الشام وقال لخثعم اكفوني خثعم من الشام، وأمر كل قبيلة من اهل العراق ان تكفيه اختها من اهل الشام الا ان تكون قبيلة ليس منها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى تكون بالشام مثل بجيلة لم يكن

(١) الطبري، تاريخ، ج٥/ ص٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٠/٥٠٣-٥٠٤.

منهم بالشام الا عدد قليل فصرفهم الى لخم[١]، وهذا الاجراء الحربي الذي اتخذه امير المؤمنين علي ﷺ لا شك انه يقصد من ورائه امرا مهما وهو منع اثارة العصبية القبلية وغلبتها على المقصد الذي خرج من اجله وهو اقرار المنهج الاسلامي الذي سعى اليه واعادة اجتماع ألامة الإسلامية تحت سلطة مركزية واحدة ممثلة بسلطة الخليفة، اذ انه لو ترك كل قبيلة تقاتل التي تليها دون ان يدفع كل قبيلة لتقاتل اختها في الشام فلربما اثار ذلك حمية بعض القبائل في جيشه وهي ترى اختها من الشام وقت اشرفت على الهلاك على يد القبيلة في جيشه فتنتصر لها لفعل الحمية والعصبية فيدب الخلاف بين هاتين القبيلتين في جيشه وهكذا مع بقية القبائل[٢]، ومثال ذلك لو ان الازد في جيشه قاتلت خثعم من اهل الشام وتمكنت من هزيمتها وأكثرت من قتل رجالها فمن يأمن ان لا تثور ثائرة خثعم من جيش علي ﷺ فتنتصر لخثعم من الشام لاسيما وان هناك الكثير من قبائل العرب لم تكن المودة قائمة بينها، ولكي لا تظن هذه القبيلة ان ما يجري لاختها في الشام انما هو ثأر او أستئصال لها الامر الذي سيؤدي بالتالي الى اختلاف الامر على امير المؤمنين علي ﷺ وتفلته من بين يديه وربما يؤدي الى التطاعن بين اصحابه فيما بينهم، فانه في جعله لكل قبيلة من جيشه تقاتل اختها من الشام انما هو اسلم اجراء من غيره. ويستشف من هذا ان استحضار القبيلة من قبل امير المؤمنين علي ﷺ كان الغرض منه درء فتنة يمكن ان تحصل بين القبائل المتحاربة فيخرج الغرض من توجهه الى الشام عن مقصده وتأتي على هلاك القبائل العربية.

ان ما كان يجري من حروب بين المسلمين دفع بعض الذين أسهموا فيها الى التعبير عن الصراع النفسي الذي كان يختلجهم بسبب ان ما كان يحدث فضلاً عن كونه يمثل استنزافاً لدماء المسلمين فانها تمثل تقطيعاً للأرحام والصلات القبلية وقد عبرعن هذا احد زعماء الأزد بقوله: (والله ما هي الا ايدينا نقطعها بايدينا وما هي

(١) الطبري،تاريخ،ج١٤/٥.ابن مزاحم ،نصرالمنقري (ت٢١٣هـ)،وقعة صفين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون،(دار الجيل- بيروت -١٩٩٠)، ص ٢٢٩.

(٢) الجابري ، العقل السياسي ، ص١٦١.

الا اجنحتنا نجذّها باسيافنا)[١] وما عبر عنه احد اهل الشام حين قتل ابو كعب رئيس خثعم في جيش امير المؤمنين علي ﷺ فانصرف عنه باكياً وهو يقول: (رحمك الله ابا كعب لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس ٌّ بي رحماً منهم وأحبٌّ إليٌّ نفساً منهم، ولا أرى قريشاً الاّ قد لعبت بنا)[٢]، كما ظل هذا الأمر يستشعره البعض بأنه صراع بين بيتي قريش – بنو هاشم وبني امية – وما ينضوي تحت كل منهما من قبائل العرب فضلاً عن وجود رجال القبيلة الواحدة في كلا الجانبين ، اذ قال محمد بن علي بن ابي طالب ﷺ- ابن الحنفية- بهذا الشأن: (أهل بيتين يتخذهما العرب أندادا من دون الله : نحن وبنو عمنا هؤلاء)[٣].

لم تتوقف التأثيرات القبلية في معسكر اهل العراق على امير المؤمنين علي ﷺ، وقد اتضح ذلك عندما رفع اهل الشام المصاحف ودعوا الى التحكيم حينما رأوا ان الدائرة ستدور عليهم[٤]، وقد نبه أمير المؤمنين أصحابه أن رفعهم لها أنما (جعلوها مكيدة وخدعة بلغهم ما فعلت من رفع المصاحف لاهل الجمل ففعلوا مثله ولم يريدوا ما اردت)[٥]، الا ان بعض اصحابه اصروا على ان يقبل التحكيم وهددوه ان لم

(١) الطبري،تاريخ،ج٥/٢٦.

(٢) ابن مزاحم ، وقعة صفين ، ص٢٥٧.

(٣) ابن سعد ، محمد (ت٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق علي محمد عمر،ط١(مكتبة الخانجي-القاهرة- ٢٠٠١)ج٧/٩٦.

(٤) البلاذري ، محمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ) ،انساب الاشراف، تحقيق سهيل زكار- رياض زركلي، ط١(دار الفكر – بيروت-١٩٩٦) ج٣ / ص٩٨ ، وكان قد قتل من اهل الشام ٤٥ الف ومن اهل العراق ٢٥ الف ،اورد ابن دحية الكلبي روايتين يذكر في الأولى العدد نفسه اما الرواية الثانية فيذكر فيها انه قتل من اهل الشام ٢٠ الف ومن اهل العراق ٤٠ الف. ابو الخطاب عمر بن الحسن ،اعلام النصر المبين في المفاضلة بين اهلي صفين، ط١(دار الغرب الإسلامي- بيروت-د.ت) ،ص٥٩وص٦١.

(٥) البلاذري ، انساب ، ج٣ / ص٩٩

يجب الى ما دعي اليه فانهم مسلموه الى اهل الشام او فاعلون به كما فعلوا بعثمان ﷺ[١].

إن موقف هؤلاء لم يكن موقف الصادقين بخروجهم مع امير المؤمنين ﷺ بل هم اولئك الذين ارادوا ان يحركوا الاحداث بحسب ما يرون هم لا ما يراه اميرهم وخليفتهم، وهذا متأتي من كونهم لم يدركوا حتى هذا الوقت انهم يمثلون رعية داخل دولة ينبغي عليهم السمع والطاعة لولي الأمر، الا ان تمسكهم بالتقاليد القبلية جعلهم لا يفهمون فكرة الدولة ولم يستوعبوها وبالتالي لم يلزموا أنفسهم بالانقياد لها ، بل وانهم كانوا يرون انفسهم شركاء في الحكم والقرار ليس من باب الشورى بل من باب انهم رؤوس القوم – اي زعماء قبائل – فلا تقطع الامور دون رأيهم وقد عبر عن هذا الأمر ابن الكواء واصحابه حين قال له: (ان لنا في كل امر رأياً، فما أتاك فاطلعنا علية حتى نشير عليك)[٢]، بمعنى نشير عليك به وتأخذ بقولنا والا كان لك منا ما تكره ، ولم يكن موقف اهل الشام هكذا مع اميرهم معاوية ﷺ بل ظلوا سامعين مطيعين ولم تزل طاعتهم قائمة له على احسن وجه، فكانت الفرقة والضعف تدب في معسكر اهل العراق بينما القوة والتماسك تتنامى في معسكر اهل الشام وهو ما سينعكس على نتيجة هذه المعركة .

لم يكن عدد الذين ارادوا التحكيم بالقليل ولهذا اضطر امير المؤمنين علي ﷺ بالقبول به، وهنا تبرز قضية جديدة تتحكم بها التناقضات القبلية الموجودة في جيش اهل العراق وهي مسألة اختيار الحكمين ، فهي وان لم تكن شهدت خلافاً في مسألة تعين من هو ممثل اهل الشام في التحكيم لان طبيعة السياسة التي اتبعها معاوية ﷺ في الشام في هذا الوقت لم تكن لتسمح بوجود تنافس قبلي واضح بين المضرية واليمانية ولهذا حين اختار عمرو بن العاص ﷺ وهو مضري ليكون ممثل اهل الشام لم يعترض علية احد من اليمانية في جيش الشام على الرغم من انهم كانوا هم اكثرية جند اهل الشام وهذا يكشف قدرة معاوية ﷺ في تحقيق الانسجام القبلي في

(١) الطبري ، تاريخ ،ج٥/٤٩؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ / ص٥٤٦ .

(٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة، ج١ / ص ٨٩ – ٩٠ .

الشام، الا ان هذا الامر لم يكن كذلك في معسكر اهل العراق فهم لم يتركوا امير المؤمنين علي ﷺ يختار من يعلم انه قادر على ان تكون له الكفاية في ادارة التحكيم ويحاجج عن اهل العراق بكل ما يستطيع ، بل لا بد ان يكون لهم القول الفصل في ذلك، وهذا كان مدفوع ايضاً بالميول القبلية وعدم رغبتهم ان ينال به رجل من قبيلة ما القول الفصل في التحكيم الا ان يكون بما هم يرونه، ولأجل ذلك فأنهم رفضوا اختيار امير المؤمنين علي ﷺ لعبدالله بن عباس ﷺ ممثلا لأهل العراق لقولهم انه احد اقربائه – ابن عمه – وهم بحسب زعمهم يريدون رجلا لا تربطه به قرابة ويكون من قبيلة يكون هو ومعاوية منها سواء[١]، بمعنى ان لا يكون هذا الرجل من قبيلة قريش اولاً ولا من مضر ولا من عبد مناف، لان بني هاشم وبنو امية هم من عبد مناف، ولم يرضوا منه ترشيح الاشتر وقدموا مرشحهم ابو موسى الاشعري ﷺ وقد حذرهم من مخالفة امره وان ابي موسى الاشعري ﷺ ليس له القدرة في هذا الأمر لاسيما وانه لم يكن مؤيدا لهذه الحرب وسبق ان اعتزل الأمر كله، ولكنهم أصروا على اختياره لاعتقادهم اولاً بانه افضل من غيره لعقد الصلح الذي يريدونه[٢]، إلا إن الأهم من ذلك بحسب ما يمكن قراءته من موقفهم هو انهم حين علموا بترشيح اهل الشام لعمرو بن العاص للتحكيم وهو من مضر لم يرغبوا ان يكون مرشحهم من مضر ايضا فتذهب بالامر مضر لوحدها دون ان يكون لليمانية قول فيه لاسيما وان اغلب رجال معسكر اهل العراق كانوا من القبائل اليمانية ، وقد افصح عن ذلك صراحة الاشعث بن قيس الكندي حين عرض عليه امير المؤمنين اختياره لابن عباس فقال له الاشعث: (لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم

(١) الطبري،تاريخ،ج٥/٥١. ابن مزاحم ، وقعة صفين ،ص٤٩٩.

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج٥/٥١. قدم رجل على امير المؤمنين ﷺ حين خرج الى البصره فسأل الرجل عما وراءه في الكوفة وعن ابي موسى الاشعري ﷺ اذ كان عامله عليها فقال له : (ان أردت الصلح فابو موسى صاحب ذلك ، وان أردت القتال فابو موسى ليس بصاحب ذلك) الطبري ، تاريخ ، ج٢ / ص٤٨٠ .

الساعة، ولكن اجعله رجلا من اهل اليمن اذ جعلوا رجلا من مضر)[١]، وحين اخبره امير المؤمنين ﷺ ان ليس لابي موسى القدرة على مواجهة عمرو بن العاص لما عرف عنه من الدهاء ، اجابه الأشعث: (والله لئن يحكما ببعض ما نكره واحدهما من اليمن أحب الينا من ان يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان)[٢]، وهكذا عبر الاشعث ومن معه على هذا الرأي وبكل صراحة ان القبيلة وحضورها لم يغادر مخيلتهم وان لها فعلها في الاحداث ، وان التصارع القبلي المضري اليمني لم يزل حاضرا فيهم بغض النظر عما يمكن ان تؤول اليه نتائج التحكيم ، وهو ما يقود في النهاية الى القول ان هؤلاء كانوا ينظرون الى ان القبيلة تعلوا على السياسة وان نتائج السياسة محكومه بالقبيلة وان نجاحها انما يأتي من خلالها وليس العكس .

ان موقف الاشعث يمثل نوعا من محاولة استعادة سلطان القبيلة في الدولة ويؤشر في الوقت نفسه سعيا للنكوص بسلطان الدولة وهو ما يعني حدوث تداعي في وحده الامة وتهديدا لكيانها ، بل وانقلاب بالمعادلة السياسية من كون ان القبيلة وبمجموعها القبائل كانت تستخدم لتعزيز وتقوية سلطان الدولة كونها تعمل تحت أمرة ولي الامر الى ان اخذ سلطان القبيلة يعارض سلطان الدولة – ولي الامر – ويسعى لان يسير الامور بالكيفية التي يراها لا بما تنظر اليه الدولة .

مضت اجراءات التحكيم وعقد الحكمين اجتماعهم وأنتهت مناقشاتهم الى ما انتهت اليه[٣] ولكنها لم تنه حالة الخلاف بين اهل الشام والعراق بل واكثر من ذلك انها ان كانت قد انتهت لصالح اهل الشام بانهم رجعوا اكثر تماسكا من ذي قبل وان ما افضت اليه كان يمثل تمهيدا لما كان عليه الحال فيما بعد من امكانية تولي معاوية بن ابي سفيان ﷺ الخلافة ويجعل مركزها دمشق في الشام ، فأن الحال لم

(١) ابن مزاحم ، وقعة صفين ،ص٥٠٠

(٢) ابن مزاحم ، وقعة صفين ، ص٥٠٠ .

(٣) البلاذري،انساب الأشراف،ج١١٧/٣ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل ، ج٢٠٥/٣ وما بعدها؛ ابن مزاحم ، وقعة صفين، ص٤٩٧ وما بعدها.

يكن كذلك بالنسبة لامير المؤمنين علي ﷺ وحاله مع اهل العراق ذلك لان اصحابه كانوا قد انقسموا عليه، فما ان عادوا الى العراق حتى خرج قسم منهم عن سلطانه وباتوا يمثلون قوة ثانية بحاجة لمواجهتها وهم الخوارج[١] الذين سيكونوا من هذا الوقت طرفا في المعادلة السياسية في الدولة الاسلامية ولكنه طرف معادي لسلطان الدولة اياً كانت صورته واياً كان متوليه لانها ترفض الخضوع والانقياد لسلطان غير السلطان نفسها .

أن ضعف الوازع الديني وتنامي النزعة القبلية لدى اهل العراق تتضح من خلال استقرائنا لما كان يصرح به امير المؤمنين علي ﷺ عن اهل العراق فقد سأله رجل قائلا : (ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على ابي بكر وعمر فقال : لان ابا بكر وعمر كانوا والييين على مثلي وانا اليوم والٍ على مثلك)[٢]، ثم شكايته من سوء طاعتهم له على العكس من اهل الشام مع اميرهم[٣]، يفهم منها ان هؤلاء قد بدؤا يرون رأيهم وان وازع الدين وسلطان الدولة ليس هو الذي يحركهم ويربط سلوكهم .

لقد كان انتهاء حرب صفين قد افضى الى وجود تصدع في وحدة الدولة وانها ستفضي الى تنامي سلطان القبيلة في الحكم لتكون على مستوى البيوتات – بني أمية وبنو العباس – وهو ما سنعرض له في بحث قادم أن شاء الله .

(١) البلاذري،انساب الأشراف،ج١/١١٠ وما بعدها؛ الطبري،تاريخ،ج٥/٦٤وما بعدها؛ ابن الأثير،الكامل،ج٣/٢١٢ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٣٧٤ .

(٣) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢(دار الجيل – بيروت–لبنان–١٩٩٦) ج٤/٧٠. ابن الأثير، الكامل،ج٣/٢٣٠–٢٣٣، ٢٤٤.

الخاتمة

من خلال ما تقدم من استعراض لبعض الأحداث السياسية في عصر صدر الإسلام نجد ان القبيلة كانت حاضرة بفعلها السياسي ومؤثرة في احداث تلك المدة سواءً كان اثرها ايجابياً ام سلبياً وبمعنى ان العرب المسلمين لم يكونوا قادرين على مغادرة الإتكاء على قوة القبيلة وبالطريقة التي يمكن ان تخدم مقاصدهم ، على ان اعتماد منطق القبيلة لم يكن واحداً لديهم فمنهم من كان يوظفها ايجابياً لتحقيق مقاصد تخدم سياسة الدولة ، ومنها ما كان يستخدمها لتحقيق مقاصد تخدم طموحاً شخصياً لم يكن الغرض منه تحقيق اجتماع الأمة ولم شملها ، ولهذا كان الطرف الأول يجعل العقيدة مقدمة على القبيلة والقبيلة بقوتها انما تكون سائرة في ظل الدين وحامية له ، اما الطرف الآخر فقد جعل القبيلة وما يمكن ان تحققه له من مكاسب متقدمة على العقيدة ، ولم تغادر القبيلة بثقلها المؤثر الحياة السياسية للدولة العربية الإسلامية عبر عصورها المتعاقبة ،ولعل ما سجلنا بعضه هنا انما هو غيض من فيض ، وكانت القبيلة ولا تزال حتى يوم الناس هذا حاضرة ولن تنفك انظمة السياسة من استخدامها وبالكيفية التي تحقق من خلالها اهدافها .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ابن الأثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم، ت(٦٣٠هـ) ،الكامل في التاريخ،تحقيق ابي الفداء عبدالله القاضي، ط١ (دار الكتب العلمية –بيروت– لبنان–١٩٨٧)

٢- الإمام البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، (مطبعة فياض – المنصورة– د.ت) .

٣- البلاذري، محمد بن يحيى بن جابر(ت٢٧٩هـ) ،انساب الاشراف ،تحقيق سهيل زكار–رياض زركلي، ط١(دار الفكر –بيروت–١٩٩٦).

٤- الجابري، محمد عابد، العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط١(مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت –١٩٩٠) .

٥- ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢ (دار الجيل –بيروت–لبنان–١٩٩٦)

٦- حميدالله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٥ (دار النفائس – بيروت– ١٩٨٥)

٧- ابن حنبل. الإمام ابو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام احمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٢(مؤسسة الرسالة– ١٩٩٩)

٨- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨١١هـ)، المقدمة، (دار الكتاب المصري — دار الكتاب اللبناني–١٩٩٩).

٩- ابن دحية الكلبي، ابو الخطاب عمر بن الحسن، اعلام النصر المبين في المفاضلة بين اهلي صفين، ط١(دار الغرب الإسلامي–بيروت–د.ت) .

١٠- الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٢(مركز دراسات الوحدة العربية– لبنان–بيروت –٢٠٠٧).

١١- ابن سعد، محمد (ت٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط١(مكتبة الخانجي-القاهرة-٢٠٠١)

١٢- الطبري ،محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢(دار المعارف – مصر –د.ت)

١٣- ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) ،العقد الفريد ، (دار احياء التراث العربي-بيروت-لبنان-د.ت).

١٤- علي،جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ (ساعدت جامعة بغداد على نشره -١٩٩٣).

١٥- العلي، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، (دار الكتب للطباعة-الموصل –د.ت) ج١/٣٨١-٣٨٣.

١٦- علي،عبدالباسط عبدالرزاق حسين،قبيلة كنده ودورها في التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية التربية – ابن رشد ٢٠٠٣.

١٧- العمري، اكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، (مكتبة العلوم والحكم، لا.مكان .د.ت) .

١٨- ابن قتيبة الدينوري، ابي محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة، ط١(دار الأضواء –بيروت-لبنان-١٩٩٠) .

١٩- ابن كثير، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) البداية والنهاية، تحقيق عباله عبدالمحسن التركي، ط١(دار هجر للطباعة والنشر-١٩٩٧) .

٢٠- المباركفوري ،صفي الرحمن: سيرة رسول الله ﷺ الرحبق المختوم، ط١ (المطبعة العالمية-لامكان-٢٠٠١) .

٢١- المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ،الكامل، (القاهرة -١٩٣٧) .

٢٢- ابن مزاحم ،نصرالمنقري (ت٢١٣هـ)، وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، (دار الجيل-بيروت -١٩٩٠) .

٢٣- الإمام مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، (دار الجيل –بيروت – د.ت)

٢٤- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي: النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني وهاشم ، تحقيق حسين مؤنس (دار المعارف- القاهرة- د.ت).

٢٥- الملاح،هاشم يحيى: حكومة الرسول –صلى الله عليه وسلم – دراسة تاريخية دستورية مقارنة، ط١(دار الكتب العلمية-لبنان –بيروت ٢٠٠٧).

٢٦- منصور، علي علي، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ط١(مطبعة مخيمر- لا.مكان – ١٩٦٥) .

٢٧- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك المعافري، (ت٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (منشورات سلسلة تراث الإسلام _لا.مكان- د.ت).